عَلَى أَرْضِ مَكَّةَ

بِقَلَمِ: دينَا أَحْمَد سَعِيد

مكتبة الطفل

عَلَى أَرْضِ مَكَّةَ

بِقَلَمِ: دينَا أَحْمَد سَعِيد

مكتبة الطفل

كَانَتْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ تَتَسَلَّلُ إِلَى أَرْجَاءِ الْمَنْزِلِ، فَتُضْفِي عَلَى جُدْرَانِهِ شَيْئًا مِنَ الدِّفْءِ، بَيْنَمَا كَانَتْ تِلَاوَاتُ الْقُرْآنِ الْعَطِرَةُ تَمْلَأُ أَرْجَاءَهُ، وَتَنْتَشِرُ رَائِحَةُ الْمَخْبُوزَاتِ الشَّهِيَّةِ فِي الْمَكَانِ.

وَأَمَامَ شَاشَةِ التِّلْفَازِ، جَلَسَ الزُّبَيْرُ وَفَاطِمَةُ يُنْصِتَانِ إِلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَيُشَاهِدَانِ أَفْوَاجًا مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ يَطُوفُونَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ.

نَظَرَتْ فَاطِمَةُ إِلَى الزُّبَيْرِ وَقَالَتْ:

— يَا زُبَيْرُ، هَلْ تَعْلَمُ مَنْ الَّذِي بَنَى الْكَعْبَةَ؟

اِنْفَرَجَتْ أَسَارِيرُ الزُّبَيْرِ، وَقَالَ بِثِقَةٍ:

— نَعَمْ، أَعْلَمُ! إِنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

كَتَمَتْ فَاطِمَةُ ضَحِكَتَهَا، وَقَالَتْ:

— تَتَحَدَّثُ بِكُلِّ هَذِهِ الثِّقَةِ، وَلَكِنَّكَ مُخْطِئٌ! إِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.



وَقَفَ الصَّغِيرَانِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يُصِرُّ عَلَى رَأْيِهِ، ثُمَّ رَكَضَا مَعًا إِلَى الْمَطْبَخِ.
قَالَتْ فَاطِمَةُ:
— أُمِّي، أَلَيْسَ النَّبِيُّ الَّذِي بَنَى الْكَعْبَةَ هُوَ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؟
قَالَ الزُّبَيْرُ:
— لَا يَا فَاطِمَةُ! لَقَدْ أَخْبَرْتُكِ مِنْ قَبْلُ: إِنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
رَفَعَت فَاطِمَةُ صَوْتَهَا وَقَالَتْ:
— بَلْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ!
وَمِثْلَهَا فَعَلَ الزُّبَيْرُ، وَقَالَ:
— بَلْ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ!
نَظَرَتْ إِلَيْهِمَا وَالِدَتُهُمَا، وَقَالَتْ:
— كَفَاكُمَا صُرَاخًا وَعِنَادًا. سَأُتِمُّ إِعْدَادَ الطَّعَامِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ وَالِدُكُمَا، ثُمَّ أُخْبِرُكُمَا مَن الَّذِي بَنَى الْكَعْبَةَ.
هَزَّ الصَّغِيرَانِ رَأْسَيْهِمَا، وَقَالَا:
— حَسَنًا يَا أُمِّي.



اِنْتَهَتِ الْأُمُّ مِنْ إِعْدَادِ الطَّعَامِ، ثُمَّ اغْتَسَلَتْ، وَنَادَتْ طِفْلَيْهَا:

— فَاطِمَةَ، الزُّبَيْرِ، تَعَالَيَا يَا صَغِيرَيَّ، لِأُخْبِرَكُمَا مَنِ الَّذِي بَنَى الْكَعْبَةَ.

جَلَسَ الصَّغِيرَانِ إِلَى جِوَارِ أُمِّهِمَا، فَقَالَتْ:

— الَّذِي بَنَى الْكَعْبَةَ هُوَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، كِلَاهُمَا.

نَظَرَتْ فَاطِمَةُ وَالزُّبَيْرُ إِلَى بَعْضِهِمَا بِتَعَجُّبٍ، وَقَالَا مَعًا:

— كِلَاهُمَا؟!

سَأَلَتْ فَاطِمَةُ:

— وَلَكِنْ كَيْفَ ذَلِكَ يَا أُمِّي؟

اِبْتَسَمَتِ الْأُمُّ وَقَالَتْ:

— أَمَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ، وَقَدْ أَخْبَرَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَقَالَ:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الْبَقَرَةِ: ١٢٧]

ثُمَّ أَمَرَهُمَا اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَا الْبَيْتَ؛ لِيَكُونَ مَكَانًا طَاهِرًا لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ.

وَالْآنَ يَا صَغِيرَيَّ، عَرَفْتُمَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قَدْ رَفَعَا قَوَاعِدَ الْكَعْبَةِ



قَالَتْ فَاطِمَةُ بِسَعَادَةٍ:
— جَمِيلٌ يَا أُمِّي! لَقَدْ عَلِمْنَا الْآنَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ رَفَعَا قَوَاعِدَ الْكَعْبَةِ.
ثُمَّ سَكَتَتْ قَلِيلًا، وَقَالَتْ:
— أُمْمْمْ... وَلَكِنْ عِنْدِي سُؤَالٌ آخَرُ!
اِبْتَسَمَتِ الْأُمُّ وَقَالَتْ:
— أَخْبِرِينِي، مَا هُوَ؟
قَالَتْ فَاطِمَةُ:
— مَاذَا عَنْ بِئْرِ زَمْزَمَ؟ مِنْ أَيْنَ جَاءَ؟ لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّهُ لَمْ يَنْقَطِعْ مُنْذُ أَنْ ظَهَرَ! وَكَيْفَ وُجِدَ؟ عِنْدَمَا ذَهَبْنَا إِلَى مَكَّةَ الْعَامَ الْمَاضِيَ، شَرِبْنَا مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، وَكَانَ طَعْمُهُ لَذِيذًا جِدًّا.
مَسَحَتِ الْأُمُّ عَلَى رَأْسِ فَاطِمَةَ بِحَنَانٍ، وَقَالَتْ:
— بَارَكَ اللَّهُ فِيكِ وَفِي أَسْئِلَتِكِ يَا فَاطِمَةُ.
اِبْتَسَمَ الزُّبَيْرُ بِحَمَاسٍ، وَقَالَ:
— وَأَنَا أَيْضًا لَدَيَّ سُؤَالٌ، لَكِنَّنِي سَأَنْتَظِرُ حَتَّى تُجِيبِي عَنْ سُؤَالِ فَاطِمَةَ؛ فَهِيَ سَأَلَتْ أَوَّلًا. وَعِنْدَمَا أَسْأَلُكِ يَا أُمِّي، ادْعِي اللَّهَ أَنْ يُبَارِكَ لِي كَمَا دَعَوْتِ لَهَا!
ضَحِكَتِ الْأُمُّ وَقَالَتْ:
— حَسَنًا، سَأَدْعُو اللَّهَ لَكَ. وَالْآنَ دَعْنِي أُجِبْ عَنْ سُؤَالِ فَاطِمَةَ الذَّكِيِّ.



قَالَتِ الْأُمُّ:

— فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، أَمَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيَّهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَذْهَبَ بِهَاجَرَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَكَّةَ.

فَذَهَبَ بِهِمَا، وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ بَيْتٌ وَلَا بِنَاءٌ وَلَا زَرْعٌ وَلَا مَاءٌ.

وَكَانَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَضِيعًا، وَمَكَّةُ يَوْمَهَا وَادٍ قَاحِلٌ.

تَرَكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَاجَرَ وَابْنَهَا هُنَاكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ بَعْضُ التَّمْرِ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ عَادَ.

فَقَالَتْ هَاجَرُ:

— يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟

وَظَلَّتْ تَسْأَلُهُ، حَتَّى قَالَتْ:

— آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟

قَالَ:

— نَعَمْ.

فَقَالَتْ هَاجَرُ بِثِقَةٍ:

— إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا اللَّهُ!



مَرَّت الْأَيَّامُ، وَنَفِدَ الْمَاءُ، وَعَطِشَتْ هَاجَرُ، وَعَطِشَ طِفْلُهَا إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
نَظَرَتْ إِلَيْهِ، فَرَأَتْهُ يَتَلَوَّى مِنْ شِدَّةِ الْعَطَشِ، فَلَمْ تُطِقْ أَنْ تَرَاهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ.
فَانْطَلَقَتْ تَبْحَثُ عَنِ الْمَاءِ، وَسَعَتْ بَيْنَ جَبَلَيِ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، تَبْحَثُ عَنْ أَحَدٍ يُغِيثُهَا.
وَبَيْنَمَا كَانَتْ تَقْتَرِبُ مِنَ الْمَرْوَةِ، سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ:
— صَهْ!
أَيْ: اُسْكُتِي لِأَسْتَمِعَ وَأَعْرِفَ مَصْدَرَ الصَّوْتِ.
ثُمَّ أَنْصَتَتْ، فَإِذَا بِهَا تَسْمَعُ الصَّوْتَ مَرَّةً أُخْرَى.
فَقَالَتْ:
— قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ!
أَيْ: إِنْ كَانَ عِنْدَكَ مَا يُغِيثُنِي فَأَغِثْنِي.
فَإِذَا بِهَا تَرَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ.



فَأَظْهَرَ اللَّهُ الْمَاءَ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَجَعَلَتْ هَاجَرُ تُحِيطُ الْمَاءَ بِالتُّرَابِ حَتَّى لَا يَتَفَرَّقَ، وَتَجْمَعُهُ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ.

وَكَانَ الْمَاءُ يَفُورُ كُلَّمَا أَخَذَتْ مِنْهُ.

ثُمَّ جَاءَتِ الطُّيُورُ تَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي أَنْ تَلْتَفِتَ الْأَنْظَارُ إِلَى الْمَكَانِ.

سَأَلَ الزُّبَيْرُ مُتَعَجِّبًا:

— وَلِمَاذَا سُمِّيَتْ زَمْزَمَ يَا أُمِّي؟

اِبْتَسَمَتِ الْأُمُّ وَقَالَتْ:

— لِأَنَّ هَاجَرَ عَلَيْهَا السَّلَامُ أَخَذَتْ تُحِيطُ الْمَاءَ بِالتُّرَابِ وَتَجْمَعُهُ، حَتَّى لَا يَذْهَبَ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَكَأَنَّهَا زَمَّتْهُ، أَيْ: جَمَعَتْهُ وَأَحَاطَتْ بِهِ.

ثُمَّ قَالَتْ:

— وَهَلْ تُرِيدَانِ أَنْ تَعْرِفَا مَاذَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ؟

قَالَ الزُّبَيْرُ وَفَاطِمَةُ بِصَوْتٍ وَاحِدٍ:

— نَعَمْ يَا أُمِّي، أَكْمِلِي لَنَا!



قَالَت الْأُمُّ:
— كَانَتْ هُنَاكَ قَبِيلَةٌ مِنَ الْيَمَنِ تُدْعَى جُرْهُمَ، وَكَانَتْ تَبْحَثُ عَنِ الْمَاءِ.
فَلَمَّا رَأَوْا الطُّيُورَ تَتَجَمَّعُ فِي الْمَكَانِ، قَالُوا: لَا بُدَّ أَنْ هُنَاكَ مَاءً!
فَذَهَبُوا يَبْحَثُونَ، حَتَّى وَجَدُوا مَاءَ زَمْزَمَ، وَوَجَدُوا هَاجَرَ وَابْنَهَا إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
فَسَكَنُوا بِجوَارِهِمَا، وَعَاشَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَهُمْ.
وَهَكَذَا لَمْ تَعُدْ هَاجَرُ وَحْدَهَا فِي ذَلِكَ الْوَادِي.
قَالَ الزُّبَيْرُ بِإِعْجَاب:
— سُبْحَانَ اللَّهِ يَا أُمِّي! كَيْفَ سَخَّرَ اللَّهُ لِأُمِّنَا هَاجَرَ الْمَاءَ، وَجَعَلَ قَبِيلَةً تَسْكُنُ مَعَهَا!
ثُمَّ قَالَ:
— لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ لِأَنَّهَا أَحْسَنَتِ الظَّنَّ بِرَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى!
اِبْتَسَمَتِ الْأُمُّ وَقَالَتْ:
— نَعَمْ يَا بُنَيَّ، لَقَدْ أَحْسَنَتِ الظَّنَّ بِاللَّهِ.



قَالَتِ الْأُمُّ:

— كَانَتْ هَاجَرُ عَلَيْهَا السَّلَامُ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا تَقْرِيبًا، وَمَعَهَا طِفْلُهَا الرَّضِيعُ، وَفِي مَكَانٍ خَالٍ مِنَ النَّاسِ وَالزَّرْعِ وَالْمَاءِ.

وَمَعَ ذَلِكَ، عِنْدَمَا عَلِمَتْ أَنَّ مَا حَدَثَ كَانَ بِأَمْرِ اللَّهِ، قَالَتْ بِكُلِّ ثِقَةٍ:

«إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا اللَّهُ!»

وَهَذَا هُوَ حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ.

ثُمَّ سَأَلَتِ الْأُمُّ ابْنَهَا:

— هَيَّا يَا صَغِيرِي، أَخْبِرْنِي، مَا سُؤَالُكَ؟

ضَحِكَ الزُّبَيْرُ وَقَالَ:

— كُنْتُ سَأَسْأَلُكِ عَنِ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، لَكِنَّكِ أَخْبَرْتِنَا عَنْهُمَا مَعَ سُؤَالِ فَاطِمَةَ!

ثُمَّ أَضَافَ: — وَلَكِنْ لَا تَنْسَيْ أَنْ تَدْعِي لِي مِثْلَمَا دَعَوْتِ لَهَا!

ضَحِكَتِ الْأُمُّ وَقَالَتْ: — بِالتَّأْكِيدِ، سَأَدْعُو لَكُمَا، يَا صَغِيرَيَّ!

أَمَّا فَاطِمَةُ، فَكَانَتْ صَامِتَةً تَتَأَمَّلُ.

قَالَتْ لَهَا أُمُّهَا: — فَاطِمَةُ، أَيْنَ ذَهَبَ صَوْتُكِ؟

قَالَتْ فَاطِمَةُ:

— كُنْتُ أَتَأَمَّلُ يَا أُمِّي... عِنْدَمَا نَذْهَبُ إِلَى مَكَّةَ فِي الْمَرَّةِ الْقَادِمَةِ، سَنَتَذَكَّرُ قِصَّةَ أُمِّنَا هَاجَرَ، وَنَتَأَمَّلُ كَيْفَ كَانَتْ تَسْعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ.



تَنَهَّدَتِ الْأُمُّ بِحُبٍّ، وَقَالَتْ:
— رَضِيَ اللَّهُ عَنْكُمَا يَا صَغِيرَيَّ، وَبَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا.
قَالَ الزُّبَيْرُ وَفَاطِمَةُ بِصَوْتٍ وَاحِدٍ:
— آمِينَ يَا أُمِّي، حَفِظَكِ اللَّهُ أَنْتِ وَأَبِي.
ثُمَّ قَالَتْ فَاطِمَةُ:
— يَا زُبَيْرُ، إِنَّ أَبِي يَسْعَى فِي الْخَارِجِ مِنْ أَجْلِنَا، مُقْتَدِيًا بِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَأُمِّي تَسْعَى فِي الدَّاخِلِ لِتَرْبِيَتِنَا وَإِصْلَاحِنَا، مُقْتَدِيَةً بِأُمِّنَا هَاجَرَ عَلَيْهَا السَّلَامُ.
ثُمَّ نَظَرَتْ إِلَى أُمِّهَا وَقَالَتْ:
— فَأُمِّي تَعْبُدُ اللَّهَ، وَتَثِقُ بِهِ، وَلَا تَسْتَسْلِمُ لِلصُّعُوبَاتِ. وَعِنْدَمَا نَمْرَضُ أَوْ نَمُرُّ بِظُرُوفٍ صَعْبَةٍ، نَجِدُهَا أَكْثَرَ ثَبَاتًا وَصَبْرًا وَرِضًا؛ لِأَنَّهَا تُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ.
ثُمَّ ابْتَسَمَتْ وَقَالَتْ:
— لَقَدْ تَعَلَّمْتُ الْيَوْمَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ مَنْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِهِ.
اِنْحَدَرَتْ دَمْعَةٌ مِنْ عَيْنِ الْأُمِّ، وَفَتَحَتْ ذِرَاعَيْهَا لَهُمَا، وَقَالَتْ:
— تَعَالَيَا يَا صَغِيرَيَّ الرَّائِعَيْنِ.
فَأَسْرَعَا إِلَيْهَا، وَاجْتَمَعَا فِي حُضْنِهَا الدَّافِئِ.





مكتبة الطفل